الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

أحببت أن أتكلم عن الاسلام والديمقراطية لأنى رأيت بعض الصحف الأجنبية كلما تعرضت للنظم فى مصر قالت : ليست الديمقراطية مادة للتصدير ؛ وهى تقصد أنها لاتصلح لنا ولا نصلح لها . وما علمت أن قوما يدينون بالاسلام حرام أن تضيع الديمقراطية بينهم

وإذا ناديت أن الاسلام دين الديمقراطية فانى استوحى التنزيل الحكيم ، وأستلهم الحديث الشريف ، وأستهدى المأثور من أقوال أعلام الاسلام ، وأحكم فى ضوء الأعمال الخالدة فى تاريخ الانسانية ، ليتم لى القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها ، وقرر من مبادىء الاخاء أسماها ، ومن قواعد المساواة أعلاها . فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية ، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس

إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الانسان فى الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ فان الاسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها فى أوربا بأكثر من ألف ومائتى عام . وإذ كان الفضل للمتقدم ، فالفضل للاسلام فى تحرير الانسانية من ربقة الاستعباد ، وخلاصها من أغلال الأوهام

جاء الاسلام فوضع قواعد الديمقراطية فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ودون أن يحدث هزة عنيفة فى كيان الأمة العربية ، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء . على حين أن الروح الديمقراطى لم يستطع أن يتنفس فى جو أوروبا ، وبذور المساواة لم تنبت فى البيئة الغربية ، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات ، وصراع دموى بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب ، صبغ أرض أوربا بالدماء

وسترون أن الاسلام جاء بالاخاء الصحيح ، والمساواة الحق فى حين أن الديمقراطية العصرية ، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء ، لم تبرأ من شوائب النظم البالية العتيقة

الديمقراطية ، فى اصطلاح العلوم السياسية ، هى النظام الذى يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه ، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه على أنى أسارع إلى القول بأن مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث أصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتماله على النظام السياسى . ولو شئنا أن نستغنى بالاجمال عن التفصيل ، لقلنا فى كلمة : إن الديمقراطية هى النظام أو مجموعة النظم التى تحقق مبادئ الحرية والمساواة بين الناس بقدر مايمكن أن يكون الانسان حراً ، وبالقسط من المساواة الذى لايصطدم مع النواميس الطبيعية

ورأيت الناس مشغوفين كلفين بالديمقراطية حتى لأجدهم يسرفون فى استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطى ، والفن الديمقراطى ؛ بل أراهم لايقتصدون فى التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الأصلى ، فالرجل المتواضع فى عرفهم رجل ديمقراطى ، وإن كان للديمقراطيه من ألد الخصام

عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذى تنتقل السلطة فيه إلى أيدى طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الارستقراطية

يخلص لنا من هذا التعريف أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

إن من يمعن النظر فى أقوال أرسطو يجد أن حكيم اليونان كان متيرما بالنظام الديمقراطى فى عصره ، لا لأنه كان يتنكر لمبادىء الحرية ، أو يخاصم تعاليم المساواة ، أو يضيق صدراً بتوسيع دائرة اشتراك الشعب فى إدارة شؤون الدولة ، بل لأن النظام الديمقراطى فى عهده قد ساء حتى تردت اليونان فى هاوية الفساد والفوضى

كلما اتسع أفق المعارف الانسانية ، شعر الناس بالكرامة وأحس العقل البشرى بالعزة ، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا ، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم فى إدارة دفة الشؤون العامة ، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة ، لذلك كان النضال حاداً عنيفا بين الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن سبيلها ، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التى تنعم بالامتيازات ، وطبقات الشعب التى تتطلع إلى تحقيق مبادىء المساواة . وإذن فمن الحق أن يقال : إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الانسانية

وما أنصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بان البطون هى مصدر الانقلابات فى كل أدوار التاريخ ، وأن الناس

حين هبوا يسفكون دماءهم ، ويزهقون أرواحهم ، فانما كانت هبتهم للخبز لا للحرية ، وفورتهم فى سبيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعى وراء الكمال الانسانى

وما أنصف من قبله بعض قادة الفكر فى روما حين قالوا بان الشعب الرومانى يجتزىء بالخبز والملاهى عن الحرية السياسية والاشتراك فى تسيير أداة الحكم

وإذا كان قد أتيح لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهكمين : لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز ؛ فقد كان ذلك من جراء فساد النظم ، وانحطاط أداة الحكم ، لا من جراء مسخ الطبيعة البشرية

تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادىء المساواة

على أن تربة روما لم تكن صالحة لنمو بذور الديمقراطية ، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم فى الأرض طلقوا مبادىء الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار ، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر ، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها اسلابا تقتنى وضياعا تستغل

كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم ، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسووا بينهم فى المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدأ القويم : لهم مالنا وعليهم ما علينا

وكذلك كان الاسلام كلما دخل أمة حمل معه بذور الأخاء والمساواة .

أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لأمة اليونان القديمة ، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام ، لترى بأعينكم وتلمسوا بأيديكم ، إلى أى حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بالصبغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة

كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهداً صالحا للديمقراطية ، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة فى أن المدن هى مواطن الديمقراطية . وكانت ميول اليونانيين متجانسة ، ومشاعرهم منسجمة ، ومصالحهم متحدة ، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة ، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليا واحدة

على النقيض من ذلك تماما تجد سكان الجزيرة : فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام ، وانقسموا إلى شيع وقبائل . وكانت أهواؤهم متفرقة ، ومصالحهم متنافرة . بل كانت المنازعات بينهم سلاسل متصلة الحلقات ، والحروب متواصلة الضروب

ومن ينكر اعتزاز العرب بالعصبية ؟ !

ومن ينسى تطاولهم بالاحساب والأنساب ؟ !

ومن ذا الذى لم يملأ سمعيه باخبار مفاخرتهم ومكاثرتهم ومنافرتهم ؟ !

فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنمو شجرة الديمقراطية ، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساغة تعاليم الديمقراطية وهضمها

وجاء الاسلام فنشر راية الديمقراطية ، وبث مبادىء الأخاء والمساواة ، لا لأن الجو كان مهيئا لها ، ولا لأن العقول كانت مستعدة لهضمها ، ولا لأن الاسلام شاء أن يتمشى مع العرب فى رغباتهم ، ومنازع نفوسهم ليضم الأولياء ، ويكسب الأنصار ، ولكن الاسلام جاء فالقى بذور الديمقراطية ، لأنه دين الفطرة ، لأنه دين الانسانية الطامحة إلى الكمال ، لأنه الدين الذى أخذ نفسه ببث أحكم المبادىء ، وغرس أقوم الأحكام .

أجل ، لقد حمل الاسلام راية الأخاء وأهاب باتباعه : إنما المؤمنون إخوة . والمؤمنون بعضهم أولياء بعض : وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم فى الدين .

نعم ، لقد رفع الاسلام لواء المساواة ، وأذن فى أنصاره : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

ولم يقف الاسلام عند حد تلقين أتباعه مبادىء الاخاء والمساواة نظريا ، بل راضهم عليها عمليا ، فشرع لهم الأحكام القائمة على الاخاء والمساواة ، وأراهم القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، فطبعت قلوبهم على الاخاء ، وأشربت نفوسهم حب المساواة ، حتى صاح أعرابى فى وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة ، ولم يتعثر ، ولم يتلجلج : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

انطفأت شعلة الديمقراطية فى عصور الظلمات فى أوربا ، وخبا نور الحرية ، واندثرت معالم المساواة ، وانشطر المجتمع الأوربى إلى ثلاث طبقات : فريق الاشراف ، وجماعة الاكليروس ، وطبقة الشعب . وكان التاريخ الغربى صفحة دامية من النضال بين الشعوب المهضومة الحقوق والطغاة المستبدين الذين يتنكرون لتلك الحقوق فينكرونها . واتصل التطاحن بين الطبقات ؛ فأما الأشراف فكانوا يحرصون على امتيازاتهم ، وأما رجال الدين فكانوا يضنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب ، وأما

الشعب الطامح الطامع فى رد اعتبار الكرامة البشرية ، ووضع حد لامتهان العقل الانسانى ؛ فلم يضن بأية تضحية يبذلها فى سبيل الحرية والمساواة ، فبذل دماء المجاهدين بسخاء.

كانت الحرية السياسية منعدمة ، والحرية الشخصية كلمة جوفاء ، والحرية الدينية خيالا متلاشياً ، والمساواة عبارة ذاهبة فى الهواء . وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم مما أسموه «الحق الالهى» . وكان الأشراف يلتمسون أسباب تميزهم من اختلاف المولد ، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تأولوه من نصوص الدين ، وصبرت الشعوب وصابرت حتى عقد النصر بلواتها على تلك القوى مجتمعة .

وشاورهم فى الأمر : وأمرهم شورى بينهم : وكذلك وضع الاسلام قاعدة الحكم النيابى .

وما كان على الاسلام أن يضع غير الأصول والكليات والقواعد العامة ؛ فاما الصور والأشكال التى يتحقق بها معنى الحكم النيابى فمن الطبيعى أن يترك اختيارها للقائمين بالتنفيذ .

ولا تحسبوا أن الحكم النيابى لا يوجد إلا حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ . ففى مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين . وكذلك الشأن اليوم فى بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب فى جميع الشئون التى تمس حياته العامة . ولقد يوجد التمثيل النيابى وعلى الرغم من وجوده تنعدم سلطة الأمة وتصبح خيالا متلاشياً . ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابى وخصومه على السواء فى أوربا يشكون من اضطهاد الأغلبيات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسبى ؟

الشورى إذن هى قوام الحكم النيابى وهى دعامته وروحه دون اعتبار بالصور والأشكال .

فى الصدر الأول من الاسلام كان يطبق مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

أيقن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس ، وأنه إذا دانت لهم تلك البلاد خفقت راية الاسلام فى ربوع الشعوب .

لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالأمر أو يستأثر بالرأى وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر وقوة حزم وعزم ، بل أراد أن يزل على رأى المسلمين فيمن يصلح لتولى القيادة ؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاستشارة أو يقصرها على فريق دون فريق ، فاستشار العامة والخاصة معاً . فأما العامة فأشاروا عليه أن يكون بنفسه على رأس الجيش إذ كان الناس أشد تعلقاً به ، وأكثر طاعة له . وأما الخاصة فأشاروا عليه بان يسلم القيادة لغيره وأن يبقى هو بالمدينة ضناً بحياته وحرصا على بقائه يدير دفة الشئون . ثم ارتاوا أن يكون سعد بن أبى وقاص على رأس الجيش ، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة .

وضع الاسلام دعائم الحكم النيابى وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

لكن وا أسفاه ما لبثت دولة بنى مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية ، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين ، فجنحوا للاستبداد ، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الافق ، ذلك بان النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بفطرتها ، وللبيئة فى طبع النفوس بطابعها أثر أى أثر .

ولو أن بنى مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بنى العباس صدهم سميعا ولا مجيبا

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأمر باصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال ثالث : على طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب ، فقالوا : يارسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ؛ وقام لجمع الحطب

ولا أريد أن أشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه ولما استقرت الخلافة إلى أبى بكر ، وذلك سنة إحدى عشرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى

ومما يروى عن زهده ورضاه بالكفاف من العيش إن زوجته اشتهت حلواً . فقال : ليس لنا ما نشترى به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به . قال : افعلى ، ففعلت ذلك ، فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء قليل ، فلما عرفته ذلك ليشترى بحلوا أخذه فرده إلى بيت المال . قال : هذا يفضل عن قوتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

ولما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئا وأصبح يوما وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : أتصنع ماذا وقد وليت

امر المسلمين ؟ قال: فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إلى أبى عبيدة فقال : افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال : لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال : زيدونى فان لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة ، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التى جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الأمبراطوريات الضخمة العظيمة ، فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلى عمر ، وإذ سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه . فقال : عدلت فأمنت فنمت يا عمر .

ولما سير العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة . فما راعه إلا أن يرى عمرا القائد للجيش يتبسط فى تناول الطعام مع جنوده على الأرض . فلما ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال : إن قوما ذلك شأنهم ، وتلك حال كبارهم مع صغارهم ، محال أن تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلا .

يجترىء خصوم الاسلام على الدعوى بأن مجد الاسلام قام على السيف . وتلك دعوى باطلة تضافر العدل والحق على هدمها من أساسها .

وكيف يجوز فى عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم امبراطوريتى الرومان والفرس إذا لم تكن عدتها إلا السيف؟

أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان ؟ وأين مواردهم من مواردهم ؟

وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا فى ثمانين سنة ما فتحه الرومان فى ثمانمائة ؟ فامتد رواق الملك العربى من الأندلس إلى حدود الهند ، وخفقت راية الاسلام فوق تلك الربوع جميعاً ؟

عندى أن المبادىء الحقة العادلة هى التى مهدت للمسلمين السبيل إلى بسط ملكهم فى الأرض .

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية فى سبيل تقرير قواعد الديموقراطية العصرية فى أوربا . شهدت انجلترا انقلابين فى سنة ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . وفى عام ١٧٦٦ وقعت حرب استقلال أميركا لخلع نير الاستعباد البريطانى . واضطرمت نيران الثورة فى فرنسا فى عام ١٧٨٩ . وكأن شجرة الحرية كانت لاتزال فى حاجة لدماء لتروبها ، والديمقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها ، فأججت نيران الثورة فى ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . وتواصلت الثورات فى أوربا — بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠

فأنتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا فى القرن التاسع عشر

وفى أواسط القرن الثامن عشر فى فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية . حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادىء الحرية والمساواة . وتشبع لافايت بتعاليم الديمقراطية ، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا إليها بذورها الصالحة .

وجعل روسو براعة الاستهلال فى كتابه « العقد الاجتماعى » ولد الانسان حرا على أنا نراه فى كل مكان يرسف فى القيود

وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان فى عام ١٧٨٩ — وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق : يولد الناس أحرارا ويبقون أحرارا ومتساوين

رأيتم أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

ولقد جاء الاسلام فأعلن حقوق الانسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ١٢٠٠ سنة

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . قال : عذت معاذا : قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم — ابنه عليه فقدم : فقال عمر : أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى . يعنى المصرى .

«يتبع»

عبد العزيز نافع
المحامى